

صعوبات الحكم العثماني في اليمن 1538-1554م (حروب وصراعات)

طالب الدكتوراه: محمد سيف الدين زكي - قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية -
جامعة اللاذقية

إشراف: د. علاء الدين جبور + د. عبد الوود مقشر

- الملخص -

شهدت اليمن في الفترة بين (1538 و 1554م) صعوبات كبيرة في حكم الولاة العثمانيين، نتيجة حروبهم المتكررة مع الأئمة الزيديين والصراعات الداخلية ضمن الأسرة الزيدية نفسها، فبدأ والي مصطفى عزت بمحاولات التوسع خارج زبيد، لكن محاولته الاستيلاء على تعز فشلت أمام قوة الزيديين، ما عزز من نفوذ الإمام يحيى شرف الدين وأبناءه في المناطق الشمالية والجهات التهامية، وتبع ذلك عهد مصطفى النشار، الذي تميز بهدوء نسبي على الجبهات، إلا أن الصراعات الداخلية بين أبناء الإمام يحيى، خاصة بين المطهر وشمس الدين، أتاحت للعثمانيين فرصاً محدودة للتدخل، كما حدث مع وصول أويس باشا الذي استغل خلافات الإمامة لمحاولة توسيع النفوذ العثماني.

وفي عهد أزدمر باشا، تكثفت الحملات العسكرية العثمانية ضد الزيديين، مع صعوبات كبيرة بسبب التضاريس الوعرة والخبرة العسكرية المحدودة لدى القوات العثمانية، ورغم استخدام العثمانيين للمدافع والآلات الحربية، فإن الحصون الزيدية وتحالفاتهم مع الأشراف حالت دون السيطرة الكاملة.

الكلمات المفتاحية: اليمن، العثمانيون، الأئمة الزيديون، صراعات داخلية، تعز، أزدمر باشا، الحصون، النفوذ العسكري.

Difficulties of Ottoman Rule in Yemen, 1538–1554 (Wars and Conflicts)

Phd Candidate: Muhammad Saif Al-Din Zaki -Department Of History - Faculty Of Arts And Humanities - Latakia University

Supervisors: Dr. Alaa Al-Din Jabour + Dr. Abdul Wadoud Muqashar

-Summary-

Between(1538 and 1554,) Yemen experienced significant challenges under Ottoman governors due to repeated wars with the Zaidi imams and internal conflicts within the Zaidi family. Governor Mustafa Izzat attempted to expand beyond Zabid, but his effort to capture Taiz failed against the strong Zaidi forces, which strengthened the influence of Imam Yahya Sharaf al-Din and his sons in the northern regions and the Tihama areas.

This was followed by the rule of Mustafa al-Nashar, characterized by relative calm on the fronts; however, internal disputes among Imam Yahya's sons, especially between al-Mutahhar and Shams al-Din, provided the Ottomans with limited opportunities to intervene, as seen during the arrival of Uways Pasha, who exploited the succession disputes to extend Ottoman influence.

Under Azdemir Pasha, Ottoman military campaigns against the Zaidis intensified, facing great difficulties due to the rugged terrain and limited experience of the Ottoman forces. Despite the use of artillery and war machinery, Zaidi fortresses and their alliances with the Ashraf prevented full Ottoman control.

Keywords: Yemen, Ottomans, Zaidi Imams, internal conflicts, Taiz, Azdemir Pasha, fortresses, military influence.

المقدمة:

عاشت اليمن خلال الفترة بين (1538 و1554م) مرحلة حرجة في تاريخها السياسي والعسكري، حيث واجهت الإدارة العثمانية تحديات كبيرة في السيطرة على المناطق المختلفة نتيجة الحروب المستمرة مع الأئمة الزيديين والصراعات الداخلية داخل الأسرة الزيدية نفسها.

حاول الولاة العثمانيون فرض نفوذهم وتوسيع سيطرتهم من زبيد نحو تعز والشمال، إلا أن المقاومة الزيدية، إلى جانب التحالفات القبلية والسياسية المحلية، شكّلت عقبات حقيقية أمام جهودهم، كما أسهمت الخلافات بين أبناء الإمام يحيى شرف الدين، خاصة بين المطهر وشمس الدين، في إتاحة فرص محدودة للتدخل العثماني، فيما تكثفت الحملات العسكرية في عهد أزمير باشا، لكن تضاريس اليمن الوعرة والخبرة المحدودة للقوات العثمانية حالت دون تحقيق السيطرة الكاملة. تعكس هذه الفترة صعوبات الحكم العثماني في اليمن وتعقيدات إدارة السلطة ضمن بيئة سياسية وعسكرية متشابكة.

أهمية البحث وسبب اختياره:

تتجلى أهمية هذا البحث في استكشاف الصعوبات والتحديات التي واجهها الولاة العثمانيون في اليمن خلال الفترة الواقعة بين 1538-1554م، وما صاحبها من حروب مع الأئمة الزيديين وصراعات داخلية ضمن الأسرة الزيدية أثرت على ميزان القوى في المناطق الشمالية والجنوبية لليمن. كما أنّ الموقع الاستراتيجي لليمن على الممرات التجارية والطرق البحرية جعلها منطقة محط اهتمام الدولة العثمانية، الأمر الذي انعكس على سياسات النفوذ العسكري والحكم المحلي في تلك الفترة. ويبرز هذا البحث مدى تأثير هذه الأحداث على التاريخ السياسي والعسكري لليمن في القرن السادس عشر، وهو ما يبرر اختيارنا لهذه الفترة لدراستها وتحليلها.

إشكالية البحث وتساؤلاته:

يطرح البحث عدّة تساؤلات، ويحاول الإجابة عن أهمّها:

1. ما دوافع اهتمام الدولة العثمانية بالسيطرة على اليمن خلال الفترة (1538-1554م) رغم الصعوبات العسكرية والسياسية؟
2. ما العوامل التي مكّنت الأئمة الزيديين والقوى المحلية من الحفاظ على نفوذهم ومواقعهم رغم التقدم العثماني؟
3. كيف أثرت الصراعات الداخلية ضمن الأسرة الزيدية على سير الحروب وتوازن القوى في اليمن؟
4. ما دور الموقع الاستراتيجي والخصائص الجغرافية في تحديد نتائج الحملات العثمانية؟

مصطلحات البحث:

اليمن - الدولة العثمانية - الأئمة الزيديون - الولاة العثمانيون - حصون - صراعات داخلية - تعز - نفوذ عسكري - الحملات العسكرية - أزدمر باشا.

الدراسات السابقة:

- 1- كتاب روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتح والفتوح، للمؤرخ عيسى ابن لطف الله شرف الدين، والذي قام بتحقيقه إبراهيم أحمد المقحفي، وطبع ونشر في صنعاء سنة 2003م، بمركز عبادي للنشر والتوزيع.
- وتعود أهمية هذا الكتاب إلى أنّ مؤلفه هو حفيد أحد الزعماء الزيديين البارزين خلال فترة البحث وهو المطهر بن الإمام شرف الدين، وأرخ المؤلف لفترة عاش أحداثها وعاصرها بصورة مباشرة، فقد كتب عن الفترة بين عامي (1495-1620م)، وجاء الكتاب على شكل تأريخ سنوي للأحداث الممتدة ما بين (1495-1620م)، فتكلّم عن أهم ما جرى في هذه السنوات

من مشاكل وحروب ويمكن القول أنه يلقي ضوءاً كبيراً على أوضاع الأئمة الزيديين في فترة بحثنا سواء

2- كتاب الفتح العثماني الأول لليمن (1538-1635م)، للمؤرخ سيد مصطفى سالم، تمت طباعته ونشره في القاهرة بدار الأمين للطباعة والنشر سنة (1999م).

ويتحدث فيه الكاتب عن أوضاع اليمن في أثناء السيطرة العثمانية بالتفصيل، ويتناول أغلب المعارك الدائرة بين الجيش العثماني والأئمة الزيديين، ومما يزيد القيمة العلمية لهذا الكتاب اعتماد المؤلف في مصادره على المخطوطات التاريخية وعلى المصادر المعاصرة للبحث.

3- كتاب البرق اليماني في الفتح العثماني، طبع ونشر في الرياض لدى منشورات دار اليمامة بطبعته الأولى سنة (1967م)، وهو للمؤرخ قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي والذي عاش بين (1512-1582م).

ويتكلم الكتاب عن الحملات العثمانية المتكررة لإخضاع اليمن للسيطرة المباشرة، وبما أن الكاتب كان مفتي مكة وأحد قضاتها الرسميين في فترة البحث فسند أنَّهُ تعاطف مع العثمانيين في كتاباته وانحاز إليهم انحيازاً واضحاً، ولكن على الرغم من ذلك فهو يقدم معلومات قيمة عن وضع العثمانيين في اليمن منذ تبعيته لهم سنة (1517م وحتى سنة 1572م).

منهجية البحث:

تم الاعتماد في هذا البحث على المنهج التاريخي، القائم على جمع المعلومات من المصادر والمراجع المختلفة المتعلقة بفترة (1538-1554م) في اليمن، ودراستها وتحليلها ونقدها، ومن ثم إعادة تنظيمها وفق تسلسل منطقي يعكس التطورات السياسية والعسكرية في اليمن خلال هذه الفترة، ويقدم للقارئ صورة واضحة عن صعوبات الحكم العثماني وحروبهم مع الأئمة الزيديين.

المناقشة:

أولاً: بدايات التوسع العثماني وتفكك الصفّ الزيدي 1538-1545م:

عينت الدولة العثمانية مصطفى عزت⁽¹⁾ والياً على اليمن سنة (1538م) فحاول هذا الوالي بناء على توجيهات سليمان باشا الخادم⁽²⁾ أن يتوسع خارج إطار زبيد وعمل على هذا بعد أن ضبط زبيد وما حولها، ومن ثمّ توجه إلى تعز وضرب عليها الحصار سنة (1539م) وكان واليها الزيدي⁽³⁾ آنذاك الفقيه يحيى بن إبراهيم النصيري في صنعاء حين مهاجمة الجيش العثماني للمدينة، لكنّ الأمراء الزيديين الذين كانوا فيها نجحوا في التصدي للهجوم العثماني الكثيف على تعز، في الوقت الذي أمر به الإمام يحيى شرف الدين⁽⁴⁾ يحيى بن إبراهيم النصيري بالتوجه إلى تعز ل فك الحصار العثماني عنها فتقدم الأخير إلى جبل التعكر، وأرسل الإمام بعد فترة ابنه شمس الدين

1 مصطفى عزت نائب غزة وهو من الأمراء العثمانيين الذين اشتركوا بحملة سليمان باشا الخادم، النهروالي. قطب الدين محمد بن أحمد، 1967م: البرق اليمني في الفتح العثماني، ط1، منشورات دار البمامة، الرياض، ص86.
2 سليمان باشا الخادم هو قائد وعسكري عثماني بارز قاد الحملة العثمانية الأولى على اليمن في سنة 1538م بأمر من السلطان سليمان القانوني، وذلك في إطار محاولة الدولة العثمانية توسيع نفوذها في جنوب شبه الجزيرة العربية والسيطرة على الموانئ الاستراتيجية لطرد النفوذ البرتغالي وتأمين طرق التجارة في البحر الأحمر والمحيط الهندي، الصديقي. محمد بن أبي السرور البكري، 1995م: المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيله اللطائف الربانية على المنح الرحمانية، تحقيق: ليلي الصبّاغ، ط1، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ص149-152.

3 ينتسب الزيديون إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي عاش في العصر الأموي، ودعا لنفسه بالكوفة سنة 119هـ/738م، ولقد انتشر الذهب الزيدي في اليمن خلال العصر العباسي على يد الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين الذي قدم إلى صعدة سنة 284هـ/897م، ويرى الزيديون أنّ الخلافة يجب أن تكون إمامية ومحصورة بذريّة علي بن أبي طالب من زوجته فاطمة بنت الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وهناك عدّة شروط يجب أن تتوافر في الإمام غير موضوع النسب، فلا بد أن يكون (مكلفاً- ذكراً- حراً- مجتهداً- عدلاً- ورعاً- سليم العقل- سليم الحواس- سليم الأطراف- صاحب رأي وتدبير- مقدم- فارس... الخ)، وعلى الرغم من هذه الشروط فإنّ المذهب الزيدي أجاز أن يُختار الإمام من خارج البيت الفاطمي شريطة أن يجاهر بالدعوة لنفسه، وكذلك لم يشترط أن تكون الإمامة وراثية، وسمح أن يكون هناك إمامين في وقت واحد وهذا المبدأ بالتحديد أدى إلى كثرة النزاعات والخلافات على الإمامة بين أسر الأشراف، وأحياناً ضمن أسرة الإمام نفسها، ومهما يكن من أمر فقد استمر وجود الأئمة في المناطق الشمالية من اليمن، وتمكنوا من أداء أدوار مهمة وحاسمة في تاريخ اليمن سواء في العصور الوسطى أو العصور الحديثة، أبو زهرة. محمد، 1959م: الإمام زيد حياته وعصره آرائه وفقهه، دار الفكر العربي، القاهرة، ص188-190.

4 هو الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى، ولد سنة 1472م ودعا لنفسه بالإمامة في ظفير حجة سنة 1506م، وتوفي سنة 1558م، وقبره بحصن الظفير وله العديد من المؤلفات الفقهية والشعرية، وسيكون له دور كبير في تاريخ اليمن الحديث كما سنرى ذلك خلال البحث، زيارة. محمد بن محمد بن يحيى، دون عام: تاريخ الأئمة الزيدية في اليمن حتّى العصر الحديث، تقديم وعرض: محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص118.

لمساندة الفقيه يحيى بن ابراهيم في مهمته بعد أن رأى شدة إحكام الطوق العثماني على تعز، ويدل ذلك على الأهمية الكبيرة التي تتمتع بها تعز لدى الزيديين كقاعدة أساسية لهم في اليمن الأسفل، فبقي شمس الدين معسكراً في جبل التعكر، وتقدم يحيى بن ابراهيم بجيشه إلى القرب من تعز واستطاع أن يقترب من المعسكر العثماني ويهاجم كتيبة عثمانية كانت قد فارقت المعسكر طلباً للمؤونة من القرى والمناطق القريبة ودارت بين الطرفين معركة انتصر فيها الجيش الزيدي وقتل عشرة جنود من الكتيبة العثمانية التي انهزمت عائدة إلى معسكرها، وهنا قرر الجيش العثماني رفع الحصار عن تعز والانسحاب إلى زبيد خوفاً من الجيوش الزيدية الضخمة القريبة منهم، وحاول يحيى بن ابراهيم النصيري اللحاق بهم بعد انسحابهم إلا أنه لم يتمكن من ذلك لكنهم تركوا مدافعهم والعديد من معداتهم في معسكرهم فاستولى عليها الزيديون⁽¹⁾.

أدت المحاولة العثمانية الفاشلة في الاستيلاء على تعز إلى تنامي قوة الزيديين وتضخمها وهذا ما نلمسه بشكل واضح من تقدم قوات عز الدين بن الإمام يحيى شرف الدين إلى جازان وشرقيها في مناطق أبي عريش واستيلائه على الجهات التهامية الشمالية كافة، ويمكن القول أن عهد الوالي مصطفى عزت لم يشهد أي تطورات على الساحة اليمنية بل بقي وضع العثمانيين كما هو عليه دون أي تقدم يذكر⁽²⁾، وجاءت الأوامر السلطانية بعد ذلك بعزله وتولية مصطفى النشار على اليمن سنة (1540م)⁽³⁾.

كان مصطفى النشار⁽⁴⁾ أحد الضباط العثمانيين الذين استقروا في مصر بعد سيطرة السلطان سليم الأول عليها سنة (1517م)، وبقي فيها بعد عودة هذا السلطان إلى استنبول وترقى في المناصب

1 القاسم. يحيى بن الحسين، 1968م: غاية الأمانى فى أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص 685-686.

2 شرف الدين. عيسى بن لطف الله، 2003م: روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتح والفتوح، تحقيق: ابراهيم بن أحمد المقحفي، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ص 110-111.

3 النهروالي: البرق اليماني في الفتح العثماني، ص 93-94.

4 يرجع سبب تسميته بالنشار إلى أنه كان إذا وقع في يديه قاطع طريق قام بنشره، النهروالي: البرق اليماني في الفتح العثماني، ص 94.

حتَّى أصبح كاشفاً⁽¹⁾ كما تسلَّم إمارة قافلة الحج المصري لعدد من السنوات، كما أنَّه تقرب من والي مصر في تلك الفترة داود باشا⁽²⁾ واستطاع الأخير أن يساعده بأن يصبح والياً على اليمن (1540م)، وتجدر الإشارة إلى أنَّ مصطفى النشار أول من لقب بلقب باشا من ولاية اليمن⁽³⁾، وتميز عهده بهدوء نسبي على صعيد الحروب مع الأئمة الزيديين إلّا أنَّ هذا لم يمنع من حدوث بعض الصدمات العثمانية الزيدية حيث توسعت القوات العثمانية باتجاه جازان واستعادت السيطرة عليها سنة (1543م)، وحاول عز الدين بن الإمام الذي كان أميراً على صعدة آنذاك، وجازان تعد ضمن مناطق نفوذه أن يستعيدهما وجرت بينه وبين الجيش العثماني عدَّة حروب إلّا أنه لم يتمكَّن من استرجاعها⁽⁴⁾.

توجه الجيش العثماني سنة (1544م) إلى منطقة لعسان غربي صنعاء فوجه الإمام يحيى شرف الدين لمواجهتهم قوة كبيرة استطاعت الانتصار على الجيش العثماني وقتل العديد من الجنود العثمانيين⁽⁵⁾، إلّا أنَّ كفة الإمامة الزيدية لن تبقى راجحة بعد ذلك ففي نهاية عهد مصطفى باشا النشار حدث تطور خطير داخل أسرة الإمام يحيى شرف الدين أدَّى إلى تنازعاها وضعف قوتها، والسبب في ذلك هو التنافس على منصب الإمامة بين المطهر⁽⁶⁾ وأخيه شمس الدين الذي حاول جاهداً أن يقنع والده بضرورة إبعاد المطهر عن الإمامة وتوليها له⁽⁷⁾ حتَّى وصل الأمر إلى الصدام المباشر بينهما بعد محاولة الأخير إلقاء القبض على المطهر، إذ كان الإمام مقبلاً في

1 مصطلح أطلق في العهد المملوكي للدلالة على النقيب أو الرئيس أو القائد، حلاق. حسان، صباغ. عباس، 1999م: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، ط1، دار العلم للملايين، بيروت ص185.
2 هو والي مصر بين عامي (1538-1549م)، الصديقي: المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيله اللطائف الريانية على المنح الرحمانية، ص160.

3 النهروالي: البرق اليمني في الفتح العثماني، ص94.

4 شرف الدين: روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتح والفتوح، ص111.

5 القاسم: غاية الأمانى في أخبار القطر اليمني، ص689-690.

6 المطهر بن يحيى شرف الدين 1503-1572م: هو الابن الأكبر للإمام الزيدي يحيى شرف الدين، ويُعدُّ أحد أبرز القادة السياسيين والعسكريين في اليمن خلال القرن السادس عشر الميلادي، بعد وفاة والده، تولى المطهر زمام القيادة في المناطق الشمالية والجهات التهامية، مكرساً جهوده لمواجهة النفوذ العثماني في اليمن، القاسم: غاية الأمانى في أخبار القطر اليمني، ص660.

7 الكبسي. محمد بن اسماعيل، 2005م: اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، تحقيق: خالد أبا زيد الأذرعي، ط1، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ص239.

الجرف شمال صنعاء، ولكنه أراد الانتقال منها عند حدوث الطاعون فيها سنة (1545م)، فطلب المطهر منه أن يتقدم للإقامة عنده في حصن فده⁽¹⁾، وأخرج منه المطهر أولاده وأحفاده وأقام في قلعة طيبة إلى الشمال الغربي من صنعاء، وهنا أصرَّ شمس الدين ابن الإمام يحيى على والده بإقامة تحصينات في محيط قرية القابل⁽²⁾ وبعض الأماكن الأخرى، فشر المطهر بحكم ما كان بينه وبين شمس الدين من منافسة على الإمامة، وكان يعلم ميل والده لشمس الدين أن ما يفعلونه يقصد منه محاصرته في طيبة، وتمَّ الاتفاق بين الإمام يحيى شرف الدين وابنه شمس الدين على أن يلقوا القبض على المطهر بعد صلاة الجمعة ويضعوه في السجن إلا أن أحد إخوة المطهر استطاع تنبيهه وهم في المسجد فأرسل المطهر على الفور إلى جنوده في طيبة، واستطاع بذلك إنقاذ نفسه من هذا الموقف وهنا توترت العلاقات بين الطرفين إلى أقصى حد وحاول الإمام أن يسترضي المطهر بعد ذلك لكنَّ الأخير اشترط أن يطلق الإمام يحيى يده بما يشاء من الحصون الزيدية لكنَّ الإمام رفض ذلك، وكان العثمانيون يتوقون إلى هذا الخلاف وينتظرونه بفارغ الصبر عليهم يستطيعون إحراز أي تقدم على الإمام يحيى بعد عجزهم الواضح أمام القوات الزيدية في معارك كثيرة، ودليل ذلك أنَّ الأمراء العثمانيين كانوا قد انفقوا على إرسال حسن بهلوان⁽³⁾ سنة (1540م) ليتقرب من الإمام يحيى، ويقوم بقتله أو قتل أحد أبنائه المطهر وشمس الدين إلا أنَّه عاد بعد فترة، ورغم نجاحه في التقرب من الإمام وأسرته لكنَّه لم يقتل أحد منهم، ذلك أنَّه أيقن أن المنافسة والخلافات بين المطهر وأخيه شمس الدين قادمة لا محالة سيما أنَّ قتل الإمام لن يفدهم بشيء، وإن هو قتل شمس الدين ففي ذلك حسب رأيه قوة للزيديين لأنَّ المطهر سيستبد بالأمر وإذا حاول قتل المطهر فإنَّه لن يستطيع ذلك وربما تُكشف الخطة العثمانية⁽⁴⁾.

1 حصن في الطرف الجنوبي من وادي ضهر غربي صنعاء بمسافة 7كم، شرف الدين: روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتح والفتوح، ص113.

2 قرية تقع جنوب وادي ضهر الواقع شمال غربي صنعاء، الحجري. محمد بن أحمد، 1996م: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، مجلدان، تحقيق: اسماعيل بن علي الأكوح، ط2، دار الحكمة اليمنية للطباعة والنشر، صنعاء المجلد الثاني، الجزء الرابع، ص641.

3 هو أحد الضباط المماليك الذين كانوا قد دخلوا في طاعة الدولة العثمانية بعد حملة سليمان باشا الخادم على اليمن 1538م، سالم. سيّد مصطفى، 1999م: الفتح العثماني الأول لليمن 1538-1635م، ط5، دار الأمين للطباعة والنشر، القاهرة، ص187.

4 شرف الدين: روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتح والفتوح، ص111-117.

توجه المطهر بعد ذلك إلى حصن ثلاثاً⁽¹⁾ بينما عاد الإمام يحيى إلى مكانه الأول في الجراف وبدأ المطهر بمهاجمة ممتلكات أبيه في البون شمال صنعاء فوجه الإمام يحيى ابنه شمس الدين لقتاله بجميع القوات الزيدية، وفي هذا الوقت شعر المطهر بحكم خبرته العسكرية بخلو الجراف من المقاتلين وأن الاستيلاء عليها من السهولة بمكان فأرسل مجموعة من جنوده إلى هناك وأمرهم إن هم استولوا على الجراف أن يحسنوا معاملة والده ولا يقوموا بإيذائه كما أنه أرسل إلى جنده في قلعة طيبة يأمرهم أن يساندوا القوة التي أرسلها للاستيلاء على الجراف ولكن المصادفة أنقذت الإمام يحيى، فقد وصل إليه أحد الأمراء الزيديين من حراز الواقعة إلى الغرب من صنعاء، ومعه خمسمئة جندي في اليوم نفسه الذي تقدمت فيه كتائب المطهر إلى الجراف يضاف إلى ذلك وصول بعض أهالي صنعاء إلى هناك للدفاع عن الإمام يحيى وهذا ما أدى لانتهزام جنود المطهر بعد مهاجمتهم للمدينة، في الوقت الذي كان فيه شمس الدين قد تقدم إلى نجر شمال غربي ثلاثاً لقتال أخيه وأرسل ولده صلاح الدين إلى حصن حضور الشيخ في مناطق ثلاثاً فحضر الأخير فيه، فسارع المطهر عقب ذلك بمراسلة المدن والقبائل اليمنية يدعوها إلى عصيان والده وولاته فامتعت الكثير من القبائل عن أداء الواجبات المفروضة عليها تجاه الإمام يحيى شرف الدين وشقت عصا الطاعة عليه، وتزامن هذا مع عزل مصطفى باشا النشار وإرسال الدولة العثمانية لوالي جديد إلى اليمن يدعى أويس باشا مع قوة عسكرية كبيرة ومعدات وآلات حربية ضخمة⁽²⁾.

ثانياً: سقوط تعز وصنعاء وتحول ميزان القوة 1546-1547م:

ساعد قدوم أويس باشا إلى اليمن (1546م) في وقت كانت تعاني فيه الجبهة الزيدية من الصراعات الداخلية على تقدمه السريع في الداخل اليمني، لاسيما الدعوة التي تلقاها من المطهر بن الإمام يحيى شرف الدين الذي أرسل له يحثه على محاربة والده وإيأه بالدعم والمساندة، وبالتأكيد لن يفوت أويس باشا هذه الفرصة لكنّه لم يتقدم إلى صنعاء مباشرة لتحقيق أهداف المطهر، كما كان

¹ بلدة مشهورة في الشمال الغربي من صنعاء فيها حصن منيع وآثار قديمة، الحجري: مجموع بلدان اليمن وقيائلها، المجلد الأول، الجزء الأول، ص166

² سالم: الفتح العثماني الأول لليمن 1538-1635م، ص173-174.

يخطط بل توجه إلى تعز بدايةً، وكان هذا تصرفاً طبيعياً لا بد منه لتأمين ظهر الجيش العثماني إن أراد الزحف شمالاً تجاه صنعاء ومناطقها، فخرج أويس باشا من زييد سنة (1546م) بجيش ضخم، واصطحب معه المدافع الكبيرة، وضرب الحصار على تعز، ولا بد من الإشارة إلى أن دعوة المطهر لم تكن السبب الوحيد الذي دفع أويس باشا ليتحرك تجاه المناطق الزيدية، وإنما شعر العثمانيون بضرورة استيلائهم على اليمن بأكمله حتى يستطيعوا حماية سواحلهم ناهيك عن ضغط الإسماعيليين⁽¹⁾ على أويس باشا لمحاربة الإمام يحيى شرف الدين، وذلك بحكم العداء الذي كان بينهم وبينه بما أنّ الأخير كان قد جردهم من ممتلكاتهم وأراضيهم القريبة من صنعاء في بداية تأسيسه لدولته، فألحّ زعيمهم آنذاك وهو الداعي محمد بن اسماعيل على أويس باشا بمحاربة الإمام وأولاده ووعدته أن يمده بخمسين ألف مقاتل⁽²⁾.

كان والي تعز يحيى بن إبراهيم النصيري قد عمل على تحصينها عند علمه بضخامة الجيوش العثمانية المتوجهة للمدينة، وحاصر أويس باشا تعز عدّة أيام ولكن دون جدوى وقلت المؤنة في معسكره وأراد أن يرفع الحصار عن المدينة إلا أنه تمكن من دخولها في (شباط/1546م) بمساعدة حامية مدينة تعز أنفسهم، والسبب في ذلك هو أنّ والي الزيدي في حصن التعكر القريب من تعز كان قد أساء معاملته قبائل المنطقة، وظلمهم لدرجة أنّهم ثاروا عليه وأرادوا قتله ففر منهم إلى بعدان جنوب غربي صنعاء وكان أغلب حامية تعز من أفراد هذه القبائل فانتصروا لذويهم بمحالفتهم لأويس باشا، وساعده على دخول المدينة التي هرب منها يحيى بن إبراهيم بمن بقي معه من جنود إلى جبل صبر جنوبي تعز⁽³⁾، وعند وصول هذه الأنباء إلى الإمام يحيى شرف الدين أيقن أنّه لا بد له من مصالحة المطهر بأي ثمن، لا سيما بعد أن سيطر العثمانيون على تعز، فلا بد

¹ الإسماعيليون هم فرع من الشيعة ينسبون إمامتهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وتتميز عقيدتهم بالتركيز على القيادة الروحية للإمام. وُجد الإسماعيليون في اليمن منذ القرون الوسطى، واستقرّ معظمهم في المناطق الجبلية والسهول الشمالية والغربية، خاصة في مناطق صعدة، ذمار، وحجة، حيث أسسوا مجتمعات صغيرة واعتمدوا على الزراعة والتجارة للحفاظ على وجودهم، الجادر. عادل سالم، 2000م: الإسماعيليون: الدعوة والدولة في اليمن، المجلد 1، سلسلة البحوث والدراسات الإسماعيلية، دار البحوث والدراسات، صنعاء، ص 269.

2 النهروالي: البرق اليماني في الفتح العثماني، ص 95-97.

3 القاسم: غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، ص 693-694.

لهم من التوغل شمالاً تجاه ذمار وصنعاء، ولكنَّ المطهر اشترط مقابل الصلح أن تطلق يده في جميع الأراضي والحصون الامامية وأن يسلموه جميع الأسلحة والمعدات الحربية، فوافق الإمام على ذلك، وأعلن الجميع الولاء للمطهر في سنة (1546م)، ولم يبق بيد الإمام يحيى وابنه شمس الدين غير كوكبان وحصن العروس غرب صنعاء، بالإضافة لبعض الحصون المتناثرة لأولاده الآخرين، كما ضربت النقود سنة (1546م) باسم المطهر، وتوجَّه الأخير للاستقرار في صنعاء سنة (1547م) فقام بإلقاء القبض على الوجهاء المقربين من والده وأودعهم في السجن وصادر أموالهم⁽¹⁾.

في الوقت الذي كان المطهر فيه ينتزع السلطة من والده ويثبت نفوذه في الإمامة، تمَّ تقدم الجيش العثماني بقيادة أويس باشا بعد سيطرته على تعز باتجاه ذمار في الشمال الشرقي من تعز، حيث يعد هذا الطريق على الرغم من طوله من أفضل الطرق لنقل الأسلحة والمعدات الثقيلة بسبب سهولة الطريق مقارنة مع وعورة المناطق الجبلية، فوصل الجيش العثماني إلى قعدة جنوب صنعاء، ومن ثمَّ اتجه إلى وادي خبان الواقع غربي مدينة ذمار ليصل إليها، ولابد من الإشارة إلى أنَّ الجيش العثماني سلك هذا الطريق ليدعم نفوذ العثمانيين في كافة المناطق الجنوبية مستغلاً دعم بعض القبائل الجنوبية له بعد دخولهم في طاعة الدولة العثمانية منتهزين الخلاقات الأسرية الإمامية، ولكنَّ مسيرة الجيش العثماني ستعرض لبعض المشاكل نتيجة إساءة أويس باشا معاملة الجنود، ولاسيما بعض الأمراء المماليك وكان هؤلاء من بقايا المماليك الذين دخلوا في طاعة العثمانيين بعد سقوط دولتهم على يد السلطان سليم الأول (1517م)⁽²⁾، إذ عُرفَ أويس باشا بالتهور والقسوة مما دفع هؤلاء إلى التآمر عليه بقيادة الأمير المملوكي حسن بهلوان وقتله في وادي خبان في أوائل الشهر السادس من عام (1547م)⁽³⁾، وحاول حسن بهلوان أن يستقل بأمر اليمن ويتزعم من به من المماليك ويستعيد سيطرتهم السالفة على اليمن إلا أن جهوده باءت بالفشل

1 شرف الدين: روح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتح والفتوح، ص 117-122.

2 لقمان. حمزة علي ابراهيم، 2008م: تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، ط1، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، عدن، ص 113.

3 الموزعي. شمس الدين عبد الصمد بن اسماعيل، 1986م: الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل

عثمان، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، ط1، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ص 30.

لأنَّ الأمير أزدمر⁽¹⁾ استطاع أن يجمع الجيش العثماني حوله بعد مقتل أويس باشا ودعا الجنود للانضواء تحت طاعة السلطان العثماني، فهرب حسن بهلوان مع بعض جنوده عندما شعر أنَّ مؤامرتَه قد انكشفت، ولسوء العلاقة بينه وبين أزدمر لكنَّ قبائل بني غصين في الجنوب الغربي من صنعاء تمكنت من قتل حسن بهلوان مع جنوده، وأرسلت برأسه إلى المطهر في صنعاء، ولم ينته الأمر عند هذا الحد فقد ثار أصحاب حسن بهلوان في زيد وبيت الفقيه انتقاماً لمقتله لكنَّ الأمير أزدمر سارع مباشرة بإرسال قوة من جنوده تمكنت من إعادة الأمور إلى نصابها وقتل زعماء المؤامرة⁽²⁾.

رأى الأمير أزدمر أنَّ تقدم الجيش العثماني من ذمار إلى صنعاء أفضل بكثير من العودة إلى زيد أو البقاء في ذمار اللذين من الممكن أن يعرضا الجيش العثماني لهجمات كبيرة من القوات الزيدية، فتقدَّم بقواته إلى صنعاء وأرسل قبل تحركه رسالة إلى اسطنبول يعلم فيها السلطان العثماني سليمان القانوني بما جرى، ويطلب منه تعيين والي جديد على اليمن، وكان المطهر في هذا الوقت قد استعدَّ للقتال ورتب في صنعاء قوَّة كبيرة بقيادة ابن أخيه صلاح الدِّين بن شمس الدِّين مع عدد من أمراء الأشراف، وشحن المطهر المدينة بعدد من المدافع، وتوجَّه إلى طيبة شمال غرب صنعاء، وعندما اقترب العثمانيون من صنعاء في (17/آب/1547م) ناوشهم المطهر بجيشه قرب باب المنجل في الشمال الغربي من المدينة، وتمكَّنت قوَّاته من قتل ما يقارب عشرين جندي من العثمانيين، كما خرجت حامية صنعاء لمساندته وقتلوا عدد من الجنود العثمانيين وأخذوا خيامهم، بعد ذلك شدد الجيش العثماني الحصار على صنعاء، وبدأ يضربها بالمدافع، فحاول المطهر أن يخفف الضغط عن المدينة بإشغال الجيش العثماني بالتعاون مع أخيه شمس الدِّين إلا أنَّ الأخير ولَّى هارباً إلى حصن كوكبان شمال غربي صنعاء، وكان شمس الدِّين قد اتصل سراً بالأمير أزدمر وحرَّضه على مواصلة الحرب ضدَّ أخيه المطهر الذي التحم مع الجيش العثماني مرة أخرى لكن

1 هو من الأمراء المماليك الذين دخلوا في خدمة العثمانيين عند دخولهم لمصر فتقلد العديد من المناصب ومن ثمَّ توجه مع حملة سليمان باشا الخادم إلى اليمن 1538م، وبقي بها بعد عودة الحملة وأصبح من الأمراء المشهورين في اليمن آنذاك، النهروالي: البرق اليماني في الفتح العثماني، ص98.

2 سالم: الفتح العثماني الأول لليمن 1538-1635م، ص187-188.

دون جدوى، فالتجأ إلى حصن ثلا، كذلك فقد تخلف أشرف الجوف عن نصره المطهر في الدفاع عن صنعاء بعد ما وعدوه بالمساعدة بل وأرسلوا إلى الأمير أزدمر وتحالفوا معه، ولم يكن موقف علي بن الإمام يحيى أفضل من موقف أخيه شمس الدين من المطهر حيث كان علي يكن العدا للقطهر الذي حرمه من الإمامة بعد أن كان الإمام يحيى على وشك أن يسلمها لعلي الذي وجد في هذا الموقف فرصة للانتقام من أخيه القطهر، فعمل منذ مقتل أوبس باشا على الاتصال بالقبائل المحيطة بحصن ذي مرمر، وحرّضها على خلع طاعة أخيه القطهر، وأرسل إلى الأمير أزدمر عندما كان في دمار ووعدته بدفع رواتب الجنود العثمانيين لمدة سنة إن هو تقدّم لأخذ صنعاء⁽¹⁾.

زادت هذه التطورات من ضعف القطهر مما ساعد العثمانيين على دخول صنعاء بعد حصار استمر سبعة أيام نتيجة خيانة قائد حامية باب شعوب شمال صنعاء الذي أدخل العثمانيين من الباب الموكل بحراسته، وجرت بعض المناوشات بين الجيشين الزيدي والعثماني داخل المدينة، ولكن سرعان ما انسحبت القوات الزيدية إلى القصر ومن ثمّ خرجت من المدينة عبر باب النصر شمال صنعاء، ولم يتبعهم الجنود العثمانيون لانشغالهم بأعمال السلب والنهب حيث استباحوا صنعاء في بداية دخولهم إليها إلا أنّ الأمير أزدمر استطاع إيقاف هذه الأعمال بعد ساعات من دخول الجيش العثماني إلى المدينة⁽²⁾.

يبدو جلياً أنّ النقطة الزيدية كان العامل الحاسم في سقوط صنعاء رغم العوامل الأخرى التي ترجع إلى التفوق العثماني في الأسلحة والمدافع والتجهيزات إلا أن هذا لم يكن كافياً لسقوط صنعاء أو لانتصار العثمانيين على القوات الزيدية في جبال اليمن ومناطقه الشمالية الوعرة التي لا تتناسب قتالياً مع التشكيلات العسكرية العثمانية، ومهما يكن من أمر فقد سقطت صنعاء بيد العثمانيين، وحاول عز الدين بن الإمام يحيى شرف الدين، وأمير صعدة في نفس الوقت استعادتها، وكان الأخير أثناء حصار صنعاء يحاول توسيع دائرة نفوذه تجاه جازان، وكان والده قد راسله من قبل بالعودة إلى صعدة إلا أنّه تأخر في ذلك، وما إن وصل إلى هناك حتّى كانت صنعاء قد سقطت

1 الكبسي: اللطائف السنوية في أخبار الممالك اليمنية ، ص242.

2 القاسم: غاية الأمانى في أخبار القطر اليمني ، ص700-701.

بيد العثمانيين، فأعدَّ جيشاً قوياً وانضمَّ إليه أشرف الجوف⁽¹⁾ الذين سارعوا إلى خيانتته عندما وصل بجيشه إلى الظاهر جنوب صعدة، وانسحبوا من جيشه متحالفين مع العثمانيين، يضاف إلى ذلك العداء الشديد له من قبل أهالي الظاهر بسبب سوء معاملته لهم وأخذه الرهائن منهم لضمان إخلاصهم له⁽²⁾.

تقدّم جيش عثماني بمساندة أشرف الجوف إلى الظاهر لمحاربة عز الدين الذي تأكد من نوايا أهل الظاهر بخيانتته فراسل والده يطلب المدد لكنه لم يستجب لذلك، وراسل المطهر الإمام يحيى شرف الدين يطلب منه أن يأمر شمس الدين بالتحرك من كوكبان ويتقدم هو من ثلا لنصرة أخيه عز الدين فرفض الإمام يحيى شرف الدين ذلك متذرعاً بضرورة بقاء شمس الدين وجنوده لحمايته، ولم يتوجه المطهر لمساعدة عز الدين خشية استغلال شمس الدين لغيابه واستيلائه على ثلا، ورغم ذلك استطاع عز الدين التغلب على هذا الجيش في بداية الأمر وعسكر في جبل صبح غربي صنعاء استعداداً للمعركة التالية، فقام ناصر بن أحمد وهو أحد أشرف الجوف المتواطئين مع العثمانيين بمراسلة قبائل الظاهر وتحريضها على الثورة ضدّ عز الدين مذكراً إياها بظلمه وبطشه، وما إن التحم عز الدين مع جيش الأشراف والعثمانيين مرة أخرى حتّى قامت قبائل الظاهر بنهب معسكره بما فيه من أسلحة ومعدات وخيام، فاضطر للهرب إلى حصن ظفار في مناطق صعدة، فقام الأمير أزدمر بمحاصرته هناك حتّى اضطر لتسليم نفسه للعثمانيين (1547م)، فأرسله الأمير أزدمر إلى اسطنبول مباشرة لكنه توفي في الطريق إلى هناك⁽³⁾، وفي الوقت الذي كان فيه الأمير أزدمر يحرز الانتصارات المتتالية للدولة العثمانية في الشمال اليمني كان الوالي العثماني الجديد فرهاد باشا قد وصل إلى اليمن⁽⁴⁾.

ثالثاً: تحولات الصراع وتراجع التفوق العثماني 1547-1554م:

1 ناحية معروفة في الشرق الشمالي من صنعاء، ينظر في الحجري: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، المجلد الأول، الجزء الأول، ص 195

2 شرف الدين: روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتح والفتح، ص 128-130.

3 الكبسي: اللطائف السنوية في أخبار الممالك اليمنية، ص 243.

4 سالم: الفتح العثماني الأول لليمن 1538-1635م، ص 194.

وصل فرهاد باشا إلى اليمن خلال نهاية عام (1547م)، وبعد وصوله مباشرة استطاع الأمير أزدمر أن يمد النفوذ العثماني شمالاً إلى صعدة، بينما حاول فرهاد باشا أن يوطد النفوذ العثماني جنوباً، حيث كانت عدن قد خرجت من يد الدولة العثمانية بعد أن تمكنت بعض قبائل البدو بقيادة علي بن سليمان الطولقي من الاستيلاء على المدينة وأعلنت الثورة على الدولة العثمانية سنة (1547م)، فاستطاع فرهاد باشا استعادتها في (24/شباط/1548م) بفضل مساعدة قطع الأسطول العثماني التي أرسلها والي مصر آنذاك داود باشا (1538-1549م)، كما تمكّن فرهاد باشا من القضاء على ثورة الأشراف قبائل صيبا⁽¹⁾ التي نشبت في جازان بذلك الوقت بأن أرسل لها قوة عثمانية تمكنت من قتل زعيم الثورة الشريف عبد الوهاب ابن المهدي وأعدت جازان للنفوذ في (أيلول/1548م)⁽²⁾.

لم يتوقف الأمير أزدمر عن حرب المطهر بن الإمام يحيى شمال صنعاء، لا سيما بعد ارتفاع معنويات الجيش العثماني نتيجة الانتصارات المتكررة التي أحرزها على القوات الزيدية وأسر عزالدّين بن الإمام يحيى شرف الدّين، حيث راسل الأمير أزدمر المطهر يطلب منه أن يسلم ما تحت يديه من معاقل وحصون أو يرضى بدفع ضريبة عنها للدولة العثمانية، فوافق المطهر على دفع المال لعلمه أنّ الجبهة الزيدية في حالة ضعف وأنّ الأمور غير مستقرة له نتيجة تربع الأشراف به من جهة وأخوته من جهة أخرى، ولكن العثمانيين أخطأوا في تقدير قوة المطهر داخل مناطقه الخاصة، وشعروا أنه في حالة ضعف كبيرة فأصروا على محاربتهم، فزحف الأمير أزدمر سنة 1547م إلى ثلا شمال غربي صنعاء بجيش ضخم مصطحباً معه عدد كبير من المدافع، وعندما وصل الجيش العثماني إلى المائدة الواقعة جنوب مدينة الناصرة⁽³⁾ بالقرب من حصن ثلا شرعوا بحصار الناصرة، ونصبوا المدافع حولها واستطاعوا تحطيم أسوارها نتيجة القصف الشديد للمدينة لكنّ قوات المطهر ناضت الجيش العثماني، وتمكّنت من قتل حوالي مئتي جندي عثماني،

1 هي بلدة في المخلاف السليماني قريبة من جازان، الحموي. ياقوت، 1984م: البلدان اليمنية، تحقيق: اسماعيل بن علي الأكوغ، مكتبة الجديد، صنعاء، ص173.

2 النهروالي: البرق اليمني في الفتح العثماني، ص102-104.

3 هي بلدة وحصن إلى الشمال من مدينة ثلا وهي على جبل متصلٍ بمرتفعات ثلا، الكبسي: اللوائف السننية في أخبار الممالك اليمنية، ص244.

يضاف إلى ذلك استيلائهم على عدد من الخيول العثمانية⁽¹⁾، واستمرت الحروب دائرة بين الطرفين مدة أربعين يوماً لم يحرز فيها الجيش العثماني أي تقدم يذكر، وعندما شعرت القبائل المحيطة بتلك المنطقة أنّ المطهر بعد صموده القوي هذا من الممكن أن ينتصر على العثمانيين، ويستعيد قوته السابقة وقفوا إلى جانبه وبدأوا بمهاجمة الجيش العثماني من جميع الأطراف، فتحول العثمانيون بهذا من محاصرين إلى محاصرين، وساء وضعهم العسكري إلى أقصى حد لدرجة أنّ حليفهم شمس الدين بن الإمام يحيى قدّم لهم المؤن والغذاء طوال مدة حصارهم من حصن كوكبان، إلا أنّ هذا لم يقو جانب العثمانيين سيما أنّ الأهالي في تلك المنطقة كانوا على دراية وخبرة كبيرة بالحرب في المناطق الجبلية الوعرة، ناهيك عن درجة التحصين الكبيرة التي تتمتع بها معاقلم في تلك المنطقة، وهنا اضطر الأمير أزدمر أن يرسل للمطهر بطلب الصلح فوافق الأخير على ذلك، وانسحب الجيش العثماني بعدها عائداً إلى صنعاء، وتشير المصادر إلى أنّ المطهر كان يستطيع بكل سهولة أن يهاجم الجيش العثماني أثناء عودته نتيجة حالته المزرية وأثقاله الكبيرة وهذا ما نصحه به بعض المقربين منه، إلا أنّه رفض ذلك حتّى لا ينقض عهده الذي بذله للعثمانيين⁽²⁾.

لم يستسلم الأمير أزدمر للأمر الواقع لأنّه كان واثقاً أنّ الأمور في الشمال اليمني لن تستقر للدولة العثمانية إلا بالقضاء على المطهر، ولذلك نقض هديته معه سنة 1548م بعد ضغط أشرف الجوف عليه لمحاربة المطهر، فهاجموه بالتعاون مع هؤلاء الأشراف بقيادة محمد بن الحسين في مناطق قرب البون شمال صنعاء، ودارت بين الطرفين معركة حامية تمكّنت فيها قوات المطهر من الانتصار على هذا الجيش وقتل عدد كبير من أفرادها، وكذلك الاستيلاء على المعسكر العثماني، وعاد المطهر بعد ذلك إلى ثلا بينما عاد الأمير أزدمر أدراجه إلى صنعاء، ومما ساعد على انتصار المطهر آنذاك النفاق الأهالي حوله بعد انتصاراته المتكررة، فضلاً عن وعورة المنطقة وصعوبة تضاريسها⁽³⁾، إلا أنّ هذه النتيجة لم تعجب شمس الدين بن الإمام يحيى، ولذلك تقدّم

1 شرف الدين: روح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتح والفتح، ص132.

2 القاسم: غاية الأمانى فى أخبار القطر اليماني، ص703-704.

3 سالم: الفتح العثماني الأول لليمن 1538-1635م، ص199.

إلى صنعاء وطلب من الأمير أزدمر أن يمدّه بقوة من الجنود العثمانيين لحماية حصن شبام⁽¹⁾ الواقع تحت سيطرته، كما أنه أشار على الأمير أزدمر بضرورة تحصين مدينة عمران شمال صنعاء، وشحنها بالجنود وذلك لأهمية موقعها على حدود مناطق سيطرة المطهر، ويشير هذا التنسيق الكبير بين شمس الدين والأمير أزدمر إلى رغبة الطرفين بمحاصرة المطهر في ثلا حتى يسهل الانتصار عليه، إلا أن الأخير كان على درجة كبيرة من الخبرة العسكرية، لاسيما في مناطق سيطرته والتي كانت في غاية المنعة والحصانة مما حال دون نجاح خطط الحليفين⁽²⁾.

تمّ تعيين أزدمر باشا والياً على اليمن في (1549م)، واستمرّ في شن حملاته على المطهر وربما أراد من ذلك أن يثبت للباب العالي في اسطنبول أنه على مستوى عال من المسؤولية للمهمة التي وكل بها⁽³⁾، يضاف إلى ذلك التحريض المستمر من شمس الدين بن الإمام يحيى على محاربة المطهر، ففي سنة (1549م) أشار شمس الدين على أزدمر باشا بحصار حصن بيت عز في الشمال الغربي من كوكبان، وكان هذا الحصن ضمن مناطق سيطرة المطهر، فحاصره العثمانيون حصاراً شديداً، ونصبوا حوله المدافع ورغم الجلد الكبير الذي أبداه الجنود الزيديون في الدفاع عن الحصن إلا أنهم اضطروا في نهاية الأمر إلى تسليمه عندما عجزوا عن المقاومة بعد ضغط الضربات العثمانية وشدة الحصار، لكنّ أزدمر باشا أمر بقتلهم جميعاً وكانوا ما يقارب ثمانين جندي، ومن ثمّ عاد بعدها إلى صنعاء⁽⁴⁾.

لم يلبث أزدمر باشا أن عاد إلى مناطق كوكبان شمال غربي صنعاء بناء على دعوة شمس الدين بن الإمام يحيى شرف الدين في مهاجمة حصن شمات⁽⁵⁾، وكان هذا الحصن مقسماً بين شمس الدين وبين المطهر، فسارع أهالي شمات بعد ذلك لمراسلة المطهر طالبين منه المدد للوقوف في

1 حصن قريب من كوكبان في الغرب الشمالي من صنعاء، الحجري: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، المجلد الثاني، الجزء الثالث، ص441.

2 القاسم: غاية الأمانى في أخبار القطر اليمني، ص704.

3 البطريق. عبد الحميد، 1969م: من تاريخ اليمن الحديث 1517-1840م، مركز الدراسات والبحوث العربية، القاهرة، ص25-29.

4 شرف الدين: روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتح والفتح، ص136-137.

5 هو أحد حصون مدينة الطويلة الواقعة في الغرب الشمالي من صنعاء، الحجري: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، المجلد الثاني، الجزء الثالث، ص456.

وجه القوات العثمانية، فأرسل لهم قوة من جنوده بقيادة أحد قادته، وهو علي بن داعر المصلي ولكنَّ المطهر عندما علم بضخامة الجيش العثماني والمدافع الكثيرة المتوجه بها إلى شمات قاد جيشه بنفسه لمساندة أهالي هذا الحصن، والتقى الطرفان قرب الحصن واشتدَّ القتال لدرجة كبيرة جداً⁽¹⁾، حتَّى أنَّ المؤرخ الزيدي عيسى بن لطف الله بن المطهر يصف هذه المعركة بقوله "ما وقع مثلها قط" حيث أسفرت عن مقتل مئة جندي من الجيش العثماني في حين كانت خسائر الزيديين أقل من هذا العدد نظراً لمعرفتهم التامة بأراضيهم وخبرتهم في أساليب الحرب بتلك الجبال ودروبها الوعرة، وعاد المطهر عقب هذه المعركة الكبيرة إلى ثلا مباشرة فشدد العثمانيون حصارهم لحصن شمات مما أجبر أهلها على طلب الأمان من أزدمر باشا مقابل تسليم الحصن، فوافق على ذلك لكنَّه لم يلتزم بوعوده تجاههم حيث شرع العثمانيون حال دخولهم الحصن بنهبه، واعتقلوا من وجده فيه من الجنود الزيديين، وقام أزدمر باشا بقتل بعض زعماء المنطقة عقاباً لهم على مقاومة الجيش العثماني إلا أنَّ سياسة البطش هذه لم تعط العثمانيين في اليمن سوى نتائج سلبية زادت نفور الأهالي من حكمهم، إذ توجَّه المطهر إلى شمات مرة أخرى ولكن بوضع أفضل وقوة أكبر تستند على دعم شعبي من قبل الأهالي، فأيقن أزدمر باشا عندها أنَّ انتصار الجيش الزيدي سيكون محققاً دون شك، فقرر الانسحاب السريع بقواته من حصن شمات والعودة إلى صنعاء، حتَّى أنَّ بعض الجنود العثمانيين كانوا قد توفوا أثناء جرحهم للمدفع الكبير في طريق العودة إلى صنعاء بسبب شدة وعورته، وتشير هذه الحادثة إلى سبب جوهرى من أسباب إخفاق العثمانيين في بث سيطرتهم على كامل الأراضي اليمنية، ألا وهو طبيعة الجيش العثماني المعتاد على استخدام الآلات الحربية الثقيلة، والحرب في ميادين سهلية مفتوحة بينما كانت الحرب في تلك الجبال تعتمد على أسلوب الكر والفر واستخدام الآلات الخفيفة وهذا ما يجيدوه الزيديون إلى حدٍ كبير⁽²⁾.

صدرت أوامر السلطان سليمان القانوني إلى والي مصر داوود باشا (1538-1549م) بتجهيز قوة عثمانية تتألف من ثلاثة آلاف جندي من المشاة وألف من الفرسان وإرسالها إلى اليمن لدعم أزدمر باشا، واختار داوود باشا لقيادة هذه القوة مصطفى النشار الذي سبق أن كان والياً على

1 القاسم: غاية الأمانى فى أخبار القطر اليماني، ص705.

2 شرف الدين: روح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتح والفتوح، ص137-138.

اليمن (1540-1545م) فوصل إليها مع جنوده سنة (1551م)⁽¹⁾، في الوقت الذي كان فيه أزدمر باشا قد وصل إلى المنقب الواقعة شرق كوكبان وجنوب ثلا، واتخذ من هذه المنطقة قاعدة عسكرية أمامية لمهاجمة الزيديين، ورغم أنَّ أزدمر باشا كان يعتقد أنَّ وصول المساعدات العثمانية إلى اليمن سيمكِّنه من إحراز تقدم كبير على المطهر ويجعله يخضع اليمن بكاملها للدولة العثمانية إلا أنَّ الأحداث أثبتت غير ذلك، ويعود هذا إلى تفكير مصطفى النشار المختلف تماماً عن تفكير أزدمر باشا حيث كان مصطفى النشار يحاول أن ينهي مهمته دون أن يخوض جيشه أيَّة حروب من خلال عقد الصلح مع المطهر، وحاول مصطفى النشار تنفيذ خطته الخاصة منذ وصوله إلى اليمن بمعزل عن أزدمر باشا، حيث كان داوود باشا قد زوده بكتاب إلى المطهر على لسان السلطان العثماني سليمان القانوني يطلب من المطهر فيه الدخول في طاعة الدولة العثمانية⁽²⁾.

أعلن النشار أنَّ السلطان سليمان القانوني قد أمر بإيقاف العمليات الحربية في الشمال اليمني، وأنَّ جميع القوات العثمانية في اليمن ستتوجه إلى الحبشة لمحاربة البرتغاليين الذين استولوا عليها سنة (1551م)، ورغم أنَّ بعض المصادر الزيدية تشير إلى أنَّ هذا العمل لم يعد أن يكون مجرد خدعة استعملتها الدولة العثمانية لاستدراج المطهر، إلا أنَّ أفعال مصطفى النشار أثبتت أنَّه كان يرغب بالصلح معه حتَّى اللحظات الأخيرة التي سبقت الحرب التي شنّها على المطهر بالتعاون مع أزدمر باشا⁽³⁾.

أزعجت تصرفات مصطفى النشار أزدمر باشا الذي كان مقتنعاً بعدم جدوى المفاوضات مع المطهر، مما جعله يمنع رسول مصطفى النشار من الدخول إلى منطقة المطهر عندما وصل إلى المنقب مركز الجيش العثماني وهذا ما زاد من ريبة وشك المطهر تجاه هذا الصلح⁽⁴⁾.

توجّه مصطفى النشار بعد ذلك إلى صنعاء لمقابلة أزدمر باشا وراسل المطهر أكثر من مرة يخبره بأن يرسل أحد أولاده لملاقاته في ذمار وذلك ليتأكد من صدق نية المطهر بالصلح ولكنَّ الأخير رفض ذلك، سيما أنَّه كان يشك بنوايا العثمانيين تجاهه واستغلَّ أزدمر باشا هذا الأمر كذريعة

1 النهروالي: البرق اليمني في الفتح العثماني، ص 106-107.

2 سالم: الفتح العثماني الأول لليمن 1538-1635م، ص 200-202.

3 شرف الدين: روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتح والفتوح، ص 142-144.

4 القاسم: غاية الأمان في أخبار القطر اليمني، ص 708-709.

لإقناع مصطفى النشار بعدم إخلاص المطهر، وضرورة محاربتة حتى القضاء عليه وذلك عندما قابله في نمار⁽¹⁾، وهذا ما جعل مصطفى النشار يستجيب لإلحاح أزدمر باشا بحرب المطهر ويتوجّه معه بجيشه إلى المنقب، كما أرسل إلى شمس الدين بن الإمام يحيى لمساندتهم في هذه الحرب فتوجّه إليهم مباشرةً، وتقدّم مصطفى النشار بعد ذلك بقواته إلى داخل أراضي المطهر سنة (1552م)، ووصل حتى رأس المعنيين ومن ثمّ تبعه أزدمر باشا بجنوده وعسكروا في تلك المنطقة حوالي أربعة أيام، فأرسل المطهر لمواجهتهم جيش ضخم من جنوده بقيادة ابن أخيه صلاح الدين بن شمس الدين، والتقى الطرفان بالقرب من ثلا وعلى الرغم من الفارق الكبير بين الجيشين في العدد والعتاد إلا أنّ الجيش الزيدي استطاع الصمود خلال المعركة، ولجأ الجنود الزيديون إلى حفر خنادق ليحتموا بها من ضربات المدافع العثمانية، وقتل خلال تلك المعركة عدد من القادة البارزين في قوات المطهر⁽²⁾، فتمكّن العثمانيون من اقتحام ثلا بينما التجأ المطهر إلى قلعتها وأفرغها من العامة مستعداً لحصار طويل الأمد، فأراد ألاّ يؤثر وجود الناس في القلعة على حركة جيشه في المعارك القادمة والتي أيقن المطهر بأنّها لن تنتهي في وقت قصير، وعين ابن أخيه صلاح الدين بن شمس الدين لقيادة قواته في الناصرة، بينما كان العثمانيون قد أحاطوا بحصن ثلا من جميع الجوانب وبذلوا جهوداً جبّارة لاقتحامه، إلا أنّهم لم يفلحوا في ذلك رغم استخدامهم جميع الأساليب الحربية بما في ذلك أنّهم حاولوا في إحدى المرات أن يتسللوا إلى الناصرة عن طريق نفق كانوا قد حفروه من خارج الحصن إلى داخله، وكانوا يعملون بحفره ليلاً حتى لا يلتفت لهم جنود المطهر ولكنّ أحد حرس المدينة اكتشف الأمر فأمر المطهر بأن ينصب لهم كميناً داخل هذا النفق وعندما أراد الجنود العثمانيون إكمال عملهم في الليل وقعوا في الكمين واستولى الجنود الزيديون على جميع ما وجدوه في النفق من العتاد والأسلحة، واستمرّ الحصار سبعة أشهر لم يحرز بها العثمانيون أي نتيجة تذكر⁽³⁾.

1 الكبسي: اللطائف السنوية في أخبار الممالك اليمنية، ص248

2 القاسم: غاية الأمانى في أخبار القطر اليماني، ص709-710.

3 شرف الدين: روح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتح والفتوح، ص144-146.

رغم أنّ بعض المصادر ترجع فشل العثمانيين في القضاء على المطهر إلى اختلاف أزدمر باشا مع مصطفى النشار، إلا أنّ هذا السبب يبدو غير مقنع، لأنّ مصطفى النشار كان قد انصاع لرغبة أزدمر باشا في حرب المطهر بنهاية الأمر، وهذا ما يبرر انخراط من جاء معه من جنود في حصار ثلا، وإن لم يكن القائدين على توافق تام فقد لبثت القوات العثمانية سبعة أشهر تحاصر ثلا بكامل أسلحتها وعتادها بما فيها المدافع القوية وهذه مدّة كافية لانتصار هذه القوات إن لم يكن هناك أسباب أخرى تبدو أكثر إقناعاً تتعلق بشراسة الزيديين ومناعة حصونهم، ووعورة المنطقة وقلة خبرة العثمانيين في القتال ضمن تلك المناطق، فضلاً عن شخصية المطهر الدمثة والتحالفات التي قام بها مع الأشراف، فاستطاع الزيديون بذلك أن يغيروا ميزان القوى لصالحهم، مما اضطر العثمانيون إلى إيقاف الحصار وطلب الصلح من المطهر، واقتضى هذا الصلح على أن يسلم المطهر للعثمانيين الطويلة⁽¹⁾ وحصونها في حين تبقى له السيطرة على حصونه التي تحت سلطته إضافةً إلى قبوله أن تكون الخطبة والسكة في مناطقه باسم السلطان العثماني⁽²⁾.

ورغم كل هذه الجهود المضنية التي أبداهها المطهر لم يغير الإمام يحيى شرف الدين موقفه تجاهه ولم يعهد له بالإمامة، حيث انتقل الإمام سنة 1552م من كوكبان إلى حصن الظفير في حجة، وكان آنذاك قد بلغ الثمانين من عمره، وفقد بصره وشعر بدنو أجله فأوصى بالإمامة من بعده لابنه علي لكنّ الأمور لم تستقر له نتيجة دخول الكثير من أهالي وقبائل المناطق الشمالية من اليمن في طاعة المطهر خشيةً بطشه، فقام الإمام يحيى شرف الدين بعد ذلك بمراسلة الأشراف آل المؤيد في صعدة يطلب منهم ترشيح من يروونه مناسباً للإمامة، فاتفقوا على تعيين السيّد أحمد بن عزالدين، واستطاع هذا الإمام في بداية الأمر أن يثبت نفوذه في صعدة والمناطق القريبة منها مثل الاهنوم والسودة شمال غرب صنعاء⁽³⁾، لكن سرعان ما هاجمه أشراف الجوف بقيادة الأمير ناصر بن أحمد الحمزي، ودارت بينهم عدّة حروب أسفرت عن سيطرة الأمير ناصر بن أحمد الحمزي على صعدة، والتجاء الإمام أحمد بن الحسين إلى أزدمر باشا الذي رحب به مستغلاً هذا الأمر لصالح دعم النفوذ العثماني في صعدة ومناطقها، فأرسل معه قوة عثمانية بقيادة الأمير

¹ مدينة تقع في الغرب الشمالي من صنعاء تبعد عنها مرحلتين ولها أعمال، وهي غرب كوكبان، ترتفع عن سطح البحر ألفي متر تقريباً، الحجري: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، المجلد الثاني، الجزء الثالث، ص59.

² الكبسي: اللطائف السنوية في أخبار الممالك اليمنية، ص248.

³ القاسم: غاية الأمان في أخبار القطر اليماني، ص712-714.

العثماني اسكندر إلى صعدة، والتفوا مع جيش أشرف الجوف قريباً من المدينة وتمكنوا الانتصار على هذا الجيش، في الوقت الذي تقدّم فيه أزدمر باشا بنفسه لمساعدتهم، فدخلوا صعدة سنة (1552م)، وقام أزدمر باشا بتعيين الإمام أحمد بن الحسين ولاية المنطقة الجبلية شمال صعدة، ولكنّ هذا الإمام خلع طاعة العثمانيين وسيطر على صعدة، فقام أزدمر باشا بإرسال قوة عثمانية لاستعادة المدينة من قبضته، بعد أن أدرك هذا الإمام عدم قدرته على مواجهة الجيش العثماني التجأ إلى المطهر الذي رحب به وعيّن حاكماً لحصن الجاهلي قرب حجة⁽¹⁾.

ظهر في تلك الفترة الإمام الحسن بن حمزة بن علي من الأشراف آل حمزة⁽²⁾، وبدأ يدعو لنفسه في مناطق شطب والاهنوم شمال غربي صنعاء، ولكنّه لم يحقق أي نجاح يذكر نتيجة قبضة المطهر الشديدة على تلك المناطق، حتّى اضطر فيما بعد إلى طلب الصلح والأمان من المطهر الذي وافق على ذلك، ورغم أنّ المطهر عرف بشدة بطشه وعقوباته القاسية غير المتسامحة مع خصومه السياسيين الذين يظفر بهم نراه هنا يعفو عن هذا الإمام، ويأمر بعمارة بيته في شطب ويخصص له راتباً شهرياً، وما يهمننا هنا هو تفسير هذه التصرفات من جانب المطهر والذي كان يقدر الأمور بشكل صحيح، ويعمل على استعادة قوته التي أنهكت نتيجة حروبه المتكررة مع أزدمر باشا، فقد أثبتت تقوية العلاقات مع الأشراف جدارتها سابقاً، عندما كان المطهر محاصراً في ثلا حيث تمكّن أشرف الجوف من مساندته أكثر من مرة، ويمكن القول أنّ دعمهم له كان إحدى العوامل الحاسمة التي أسهمت في انسحاب الجيش العثماني من حصار ثلا⁽³⁾.

كان أزدمر باشا من أبرز الولاة العثمانيين الذين استطاعوا أن يحدّوا من قوة الإمامة الزيدية ويقصّوا نفوذها إلى حدٍ كبير، ولكنّ هذا الأمر بقي مؤقتاً ومرتبطاً بشخص أزدمر باشا ووجوده في اليمن، لأنّ الإمامة الزيدية لم تزل موجودة بجانبها الديني المتمثل بالإمام يحيى شرف الدين، والسياسي والعسكري المتمثل بابنه المطهر الذي لن يقنع بالبقاء حبيس حصونه شمال صنعاء، وخاصة في

1 سالم: الفتح العثماني الأول لليمن 1538-1635م، 209.

2 عائلة من الأشراف تنسب إلى حمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبدالله بن الحسين الرسي، الحجري: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص 281.

3 القاسم: غاية الأمان في أخبار القطر اليمني، ص 714-715.

الفترة اللاحقة التي سيصل فيها إلى اليمن ولاية ليسوا على المستوى المؤهل أو المطلوب لمواجهة أوضاع اليمن سياسياً وعسكرياً، وجاءت الأوامر السلطانية بعد ذلك بعزل أزدمر باشا عن ولاية اليمن سنة (1554م) وتعيين مصطفى النشار مكانه، وسيكون هذا الأمر بداية لتغيرات كبيرة ستطرأ على الساحة اليمنية⁽¹⁾.

-الاستنتاجات والتوصيات:

- 1- شهدت اليمن بين 1538-1554م صراعات كبيرة بين العثمانيين والأئمة الزيديين، نتيجة النزاعات الداخلية للزيديين وحملات التوسع العثمانية.
- 2- نجح الزيديون في الحفاظ على نفوذهم في المناطق الشمالية والجهات التهامية، رغم القوة العسكرية العثمانية وامتلاكها للمدافع والأسلحة الثقيلة.
- 3- ساهمت الخلافات الداخلية بين أبناء الإمام يحيى في إتاحة فرص محدودة للعثمانيين للتدخل، كما استغلوا بعض هذه الانقسامات لتوسيع نفوذهم مؤقتاً.
- 4- شكلت التضاريس الوعرة والحصون الزيدية عائقاً كبيراً أمام السيطرة العثمانية الكاملة، مما أدى إلى تراجع التفوق العسكري العثماني رغم الحملات المكثفة.
- 5- لعبت التحالفات والولاءات المحلية دوراً محورياً في الحفاظ على توازن القوى، وأظهرت محدودية قدرة العثمانيين على فرض سيطرتهم الكاملة على اليمن خلال هذه الفترة.

-قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

1 النهروالي: البرق اليماني في الفتح العثماني، ص 117-118.

- 1- شرف الدين. عيسى بن لطف الله، 2003م: روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتح والفتوح، تحقيق: ابراهيم بن أحمد المقحفي، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء.
- 2- الصديقي. محمد بن أبي السرور البكري، 1995م: المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيله اللطائف الربانية على المنح الرحمانية، تحقيق: ليلي الصبّاغ، ط1، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.
- 3- القاسم. يحيى بن الحسين، 1968م: غاية الأمانى في أخبار القطر اليماني، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
- 4- قطب الدين محمد بن أحمد، 1967م: البرق اليماني في الفتح العثماني، ط1، منشورات دار اليمامة، الرياض.
- 5- الكبسي. محمد بن اسماعيل، 2005م: اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمانية، تحقيق: خالد أبا زيد الأذري، ط1، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء.
- 6- الموزعي. شمس الدين عبد الصمد بن اسماعيل، 1986م: الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، ط1، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت.

المراجع:

- 1- أبو زهرة. محمد، 1959م: الإمام زيد حياته وعصره آرائه وفقهه، دار الفكر العربي، القاهرة.
- 2- البطريق. عبد الحميد، 1969م: من تاريخ اليمن الحديث 1517-1840م، مركز الدراسات والبحوث العربية، القاهرة.
- 3- الجادر. عادل سالم، 2000م: الإسماعيليون: الدعوة والدولة في اليمن، المجلد 1، سلسلة البحوث والدراسات الإسماعيلية، دار البحوث والدراسات، صنعاء.
- 4- زيارة. محمد بن محمد بن يحيى، دون عام: تاريخ الأئمة الزيدية في اليمن حتى العصر الحديث، تقديم وعرض: محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- 5- سالم. سيّد مصطفى، 1999م: الفتح العثماني الأول لليمن 1538-1635م، ط5، دار الأمين للطباعة والنشر، القاهرة.
- 6- لقمان. حمزة علي ابراهيم، 2008م: تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، ط1، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، عدن.

المعاجم:

- 1- الحجري. محمد بن أحمد، 1996م: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، مجلدان، تحقيق: اسماعيل بن علي الأكوغ، ط2، دار الحكمة اليمنية للطباعة والنشر، صنعاء.
- 2- حلاق. حسان، صباغ. عباس، 1999م: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، ط1، دار العلم للملايين، بيروت.
- 3- الحموي. ياقوت، 1984م: البلدان اليمنية، تحقيق: اسماعيل بن علي الأكوغ، مكتبة الجديد، صنعاء.